﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 77 - 79]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

إيمان السحرة عجَّل بإغراق فرعون، وإنجاء بني إسرائيل منه

في الآيات السَّابقة ذكر حال موسى مع السّحرة الذين تَخلَّوْا عن كفرهم، وآمنوا باللّه تعالى لَمَّا رأوْا معجزة العصا، ثم ما وقع لهم مع فرعون، وفي الآيات هنا "شروعٌ في ذِكر إنجاء بني إسرائيل وإهلاك عدوّهم"[1]، و"حكايةٌ إجماليةٌ لما انتهى إليه أمرُ فرعونَ وقومِه، وقد طويَ في البَيْن ذِكرُ ما جرى عليهم من الآيات المفصّلات الظاهرةِ على يد موسى ﷺ بعد ما غَلب السحرةَ في نحوٍ مِن عشرينَ سنةً حسبما فُصِّل في سورة الأعراف"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحي) "الوحْي: الإشارة والكتاب والرِّسالة، وكل ما ألقيتَه إلى غيرك حتى يعلمه: وحيٌ، وأوحى اللّهُ ووحى، قال: وحى لها القرار فاستقرت، والوحي: السريع، والوحى: الصوت"[3]، والمعنى المحوريُّ: تحصيلُ شيءٍ في الأثناء لطيف المادة حادّ الأثر أو قويُّه[4]، والوحي: الكلام والإعلامُ الخفيُّ، والسُّرعة، والإلهام، وكلُّها معانٍ مُرادةٌ في الآية الكريمة.

2) ﴿أَسۡرِ﴾: الأصل: (سرو)، والسَّرْو: سخاءٌ في مُروءة،

(1) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 3/ 446.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 31.
(3) ابن فارس، مجمل اللُّغة: (وحي).
(4) جبل، المُعجمُ الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (وحي).

والسِّرْوة: سهمٌ صغيرٌ، والسَّرْو: كشف الثوب وغيره، والسَّرْو: شجر، وأرض مسروَّة من ذلك، والسُّرَى: سيرُ اللَّيل، والسَّريَّة: خيلٌ تبلغ أربع مائة، والسَّارية: سحابة الليل، يُقال: سرى ليلًا وأَسرى، قال:

أَسْرَتْ إليك ولم تكنْ تسري[1]

والمعنى المحوريُّ: نفاذ الشَّيء الدَّقيق المُمتد (في أو من) أثناء محَوُطة بقوة، كالنِّصال في الدُّروع[2]، والمعنى في الآية الكريمة: السَّير بهم ليلًا.

3) ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾: (ضرب) أَصْلٌ واحِدٌ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُحْمَلُ عليْه، من ذلك: ضَرَبْتُ ضَرْبًا، إذا أَوْقَعْتَ بِغَيْرِكَ ضَرْبًا، ويُسْتَعارُ مِنْهُ ويُشَبَّهُ به الضَّرْبُ في الأَرْضِ تِجارَةً وغَيْرَها مِنَ السَّفَرِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النِّساء: 101]، ويَقولونَ: إنَّ الإِسْراعَ إلى السَّيْرِ أَيْضًا ضَرْبٌ[3]، والمعنى المحوريُّ: غِلَظٌ يُخالط الشَّيء الرّخو أو يُداخله مداخلةً قويَّةً فيتماسك أو يشتدّ؛ كالجليد[4]، وقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ يعني: فاجعل، أو: فاتخذ.

4) ﴿طَرِيقًا﴾: (طرق) أَرْبَعَةُ أُصولٍ؛ أَحَدُها: الإِتْيانُ مَساءً، والثَّاني: الضَّرْبُ، والثَّالِثُ: جِنْسٌ من اسْتِرْخاءِ الشَّيْءِ، والرَّابِعُ: خَصْفُ شَيْءٍ على شَيْءٍ[5]، والمعنى المحوريُّ: امتدادُ الشَّيء الغَضِّ الأثناء طولًا بقوةٍ داخليَّةٍ أو ضغطٍ خارجيٍّ: كالنَّخلة[6]، والطَّريقُ: "السّبيل الذي يُطْرَقُ بالأَرْجُلِ؛ أيْ: يُضرب؛ وعنه استُعير كلُّ مَسْلَكٍ يسلكه الإنسانُ في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا"[7].

5) ﴿يَبَسًا﴾: (يبس) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على جَفافٍ، يُقالُ: يَبِسَ الشَّيْءُ يَيْبَسُ ويَيْبِسُ، واليَبْسُ: يابِسُ النَّبْتِ، وقيل: هو جَمعُ يابِسٍ، واليَبَسُ: المَكانُ يُفارِقُهُ الماءُ فيَيْبَسُ، ويُقالُ:

(1) ابن فارس، مجمل اللُّغة: (سرو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (سرو - سرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضرب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (ضرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طرق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (طرق).
(7) الراغب، المُفردات: (طرق).

يَبِسَتِ الأَرْضُ: ذَهَبَ ماؤُها ونَداها، وأَيْبَسَتْ: كَثُرَ يَبْسُها[1]، والمعنى المحوريُّ: جفافُ الشَّيء بذهاب رطوبته ونَداه منه؛ كالحَطَب والبقول، ومنه: "اليَبَس - بالتحريك: المكان يكون رطبًا ثم ييبس[2]؛ وهو المعنى المقصود في الآية.

6) ﴿دَرَكًا﴾: (درك) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو لُحوقُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ ووُصولُهُ إِلَيْه، يُقالُ أَدْرَكْتُ الشَّيْءَ أُدْرِكُهُ إِدْراكًا[3]، والمعنى المحوريُّ: لحاقٌ أو تعلقٌ بطرَفِ الشَّيء أو أقصاه: كالقَعْر في عُمق البئر وأقصاها الممتد[4]، والدَّرَكُ: أَقْصَى قَعْرِ الشّيءِ، والدَّرَكُ أيضًا: إِدْراكُ الحاجَةِ ومَطْلبه، وأَدْرَكْتُه ببَصَري: رأَيْتُه[5]، والدَّرك: اسْم مصدر من الإِدْراك[6]، والأخير هو المعنى المقصود بقوله ﴿دَرَكًا﴾ يعني: لحاقًا ووصولًا.

7) ﴿فَغَشِيَهُم﴾: (غشي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَغْطيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، والمعنى المحوريُّ تَغطّي الشَّيء بكثيف يعُمُّه: كغشاء السَرج والجَفن.. إلخ[7]، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشّيه، والغِشاءُ: الغِطاءُ، والغاشيَةُ: القيامَةُ، لأَنَّها تَغْشَى الخَلْقَ بِإِفْزاعِها، ويُقالُ: رَماهُ اللّه بِغاشيَةٍ، وهو داءٌ يَأْخُذُ كَأَنَّهُ يَغْشاهُ، والغِشْيانُ: غِشْيانُ الرَّجُلِ المَرْأَةَ[8]، ومعنى ﴿فَغَشِيَهُم﴾ في الآية: غطَّاهم من الموج ولفَّهم.

8) ﴿ٱلْيَمِّ﴾: (يمّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على قَصْدِ الشَّيْءِ وتَعَمُّدِه وقَصْدِه[9]، والمعنى المحوريُّ: تجمُّع لطيفٍ مُتَّصل المادة (أيْ: متسعها) متراكمها: كاليَمِّ بتفسيراته المذكورة[10]، واليَمُّ: البَحْرُ، وقيل: لُجَّةُ البَحر، وقال أبو عبيدة: "واليمُّ: مُعْظَمُ البحر[11]، "ويُمَّ الرَّجُلُ: غَرِقَ في اليَمِّ، ويُمَّ السَّاحِلُ يَمًّا: غَطَّاهُ اليَمُّ"[12]، ويكون المعنى في الآية على ما تقدَّم شرحه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (يبس).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (يبس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (درك).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (درك).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (درك).
(6) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (درك).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (غشو - غشي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (يمّ).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤصَّل: (يمم).
(11) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 19.
(12) ابن سِيده، المُحكم: 10/ 579.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الـلـه تـعـالى يجعل لعباده مـن الـضـيـق مخرجًا لا يخطر بِبالهم

يخبر الله تعالى أنه أمَر موسى ﷺ أن يَخرُج بِقومه ليلًا؛ فرارًا من بطش فرعون، "وذلك بعد سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم إلى الحقِّ ويظهر لهم الآيات فلم يزيدوا إلا عتوًّا وفسادًا"[1]، وأنه سبحانه وجَّه نبيّه موسى ﷺ أن يضرب بعصاه ماء البحر لينفلق عن طُرقٍ تجفُّ فورًا ويتيبّس طينها وماؤها، وأنه ﷺ سيكون آمنًا، لا يخاف أن يدركه فرعون، ولا يخشى أن يُغرِقه البحر.

وأخبر أن فرعون حشد جنوده وخرج بهم لإدراك موسى ﷺ ومن معه، وإعادتهم إلى حوزته وتأديبهم على انشقاقهم، فابتلع البحر فرعون وجنوده، وطمَّهم بمائه، وبذلك أهلك فرعون نفسه وجنده، ولم يهدهم سبيل الرشاد الذي وعدهم به.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها في المطلع:

يـحـسـن الاستئناف بعد طول الفصل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ﴾ لاستئناف إخبارٍ عن موسى، والجملة ابتدائية، والواو عاطفةٌ قِصَّة على قصة[2]، وفي الاستئناف إخبارٌ عن شيء من أمر موسى ﷺ وبينه وبين مقال السحرة المتقدم مدة من الزمان، حدث فيها لموسى ﷺ وفرعون حوادث، غدر فيها فرعون ونكث الآيات حتى أوحى الله إلى موسى ﷺ أن يُخرج بني إسرائيل في الليل[3].

نوع اللام ودلالتها في: ﴿وَلَقَدْ﴾:

الله تعالى يغيِّر بعض نواميس الكون انتصارًا لعباده

"اللام في ﴿وَلَقَدْ﴾ هي الموطِّئة للقسم"[4]، وفي "تصديرها بالقسم إبرازٌ كمال العناية بمضمونها، أي: وبِالله لقد أوحينا إليه

(1) حقي، إسماعيل، روح البيان: 6/ 276.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 269.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 360.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 446.

ﷺ أن أسْرِ بعبادي الذين أرسلتُك لإنقاذهم من مَلَكة فرعونَ"[1]، ويبدو أن القسم هنا متوجِّهٌ لانتزاع أيَّ شك قد يخالط النفوس في أمر شَقِّ البحر طُرُقًا تيبس في تلك اللحظات، فهذا مكمن الغرابة التي تقتضي التوكيد بالقسم، لا مجرد الإيحاء إلى موسى ﷺ، ولا تكليفه بضرب البحر بالعصا، فكل ذلك وارد لا يُشَكّ فيه.

دلالة ﴿وَلَقَدْ﴾ في المطلع:

يُغَيِّر النظم القرآني الأسلوبَ بِـ (قد) حين ينتقل إلى حدَثٍ جديد

جاءت ﴿وَلَقَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ "للاهتمام بالقصَّة؛ ليُلقي السامعون إليها أذهانهم، وتَغَيُّرُ الأسلوب في ابتداء هذه الجملة مُؤْذِنٌ بأنّ قصصًا طويت بين ذِكر القصتين، فلو اقتصر على حرف العطف لَتوُهِّم أنّ حكاية القصَّة الأولى لم تزل متَّصلة؛ فتوهم أن الأمر بالخروج وقع مواليًا لانتهاء محضر السَّحَرَة، مع أن بين ذلك قصصًا كثيرةً ذُكِرت في سورة الأعراف وغيرها"[2].

نكتة التعبير بالإيحاء:

من الإيحاء ما يقذفه الله تعالى في نفْس العبد

الإيحاء المقصود هنا هو الإيحاء الخاص بالمرسلين؛ من حيث إرسالُ مَلَكٍ يبلّغه عن الله تعالى مراده من خلقه، بخلاف إيحاء الإلهام، الذي يقذفه الله تعالى في نفوس من يشاء من عباده، كما أوحى الله تعالى إلى أم موسى أن ترضعه ثم تضعه في التابوت، ثم تقذفه في البحر؛ يأخذه عدوٌّ له ﷺ وعدو لموسى ﷺ.، إلى آخر تفاصيل ذلك الإيحاء.

إعلامُ موسى الأمرَ بالمسير ليلًا يناسبُ معنى الخفاء في لفظ الوحي

وتقدّم أنَّ من معاني الوحي لغة الإعلام في خفاء، والسّرعة، والأمر، وكلُّ هذه المعاني مُرادةٌ ههنا؛ فالوحيُّ لموسى ﷺ أمرٌ يُلمح منه طلب سرعة الاستجابة، ومعنى الإعلام خَفاءً فيه يناسبُ المسير ليلًا؛ لكون الليل أصلَ الخفاء والاستتار؛ فاصطفاؤه في هذا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 269.

الموضوع فيه قصدٌ دقيق يناسب سياق الآية، ولا ينافي هذا بوجه معنى التّحقيق والتّقرير والعناية بالمضمون بدلالة: اللام، وقد، وصيغة الماضي، بل إنّ في الاعلامِ بخفاءٍ إشارةً بيّنة إلى الاحتراز، والتحوّط، والحذر.

وجه التناسب بين ﴿وَلَقَدْ﴾ والماضي ﴿أَوْحَيْنَآ﴾:

تحقيق وعد الله بإنجاء المرسلين

دخول ﴿وَلَقَدْ﴾ على الماضي في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ يحقِّق التناسُب التامّ؛ إذ إن ﴿وَلَقَدْ﴾ تحقيقية، وصيغة الماضي في ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ أيضًا تحقيقية، أي: تفيد تحقُّق الوقوع؛ وبذلك التناسُب يتمّ التكامل، ومما يُهَيِّئُ لهما معًا ويُؤازرهما في إتمام التناسُب دخولُ اللام الموطِّئة للقسم؛ تأكيدًا لهذا الإيحاء، وتقريرًا له.

بلاغة مجيء المسند إليه ضميرًا بنون العظمة:

العظيم ﷻ هو الذي إذا أخبر بشيء كان محقَّقًا

أوثر استعمال ضمير العظمة (نا) في قوله تعالى ﴿أَوْحَيْنَآ﴾؛ فالعظيم ﷻ هو الذي إذا أخبر بذلك كان محقَّقًا، مقطوعًا به، لا شكّ فيه، وهكذا تتآزر طبائع عناصر التركيب على تقريرِ الحدَث وتأكيدِ وقوعه، وبيانِ واسع قدرته جلَّ في علاه.

لطيفة تعدية الإيحاء بـ ﴿إِلَىٰ﴾:

نجاة العباد غاية إرسال الرسل

في إيثار تعدية الإيحاء إلى موسى ﷺ بحرف الانتهاء ﴿إِلَىٰ﴾ دون (اللام) في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾، فلم يقل: (ولقد أوحينا لموسى)؛ إشارة إلى الغاية التي من أجلها كان الإيحاء إليه ﷺ؛ وأن الغاية هي نجاةُ قومه، وأن الأمر هنا ليس لتحقيق غاية لموسى ﷺ، وإنما لتحقيق غاية إنجاءِ قومه من فرعون وشرِّه.

معنى ﴿أَنْ﴾:

﴿أَنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ مفسِّرةٌ؛ لأنَّ الوحيَ فيه

معنى القول، أو مَصدريةٌ حُذِف عنها الجارُّ[1]، أيْ: أوحينا إليه بأن أسْر بعبادي.

غرض الأمر ﴿أَسْرِ﴾:

معنى ﴿أَسْرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ﴾: "أي: سِرْ بهم من مِصرَ ليلًا"[2]، وهذا الأمر – مع صدوره من الربّ القادر القاهر – ليس فيه من معاني الإلزام والقهر ما فيه من العناية الرحمانية بهم، و"الحكمة في أن يسري بهم ليلًا أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدوِّ؛ فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك، وليكون عائقًا عن طلب فرعون ومُتَّبِعيه، وليكون إذا تقارب العسكران لا يَرى عسكرُ موسى عسكرَ فرعون؛ فلا يهابوهم"[3].

أوامرُ الله تعالى لعباده كلُّها خيرٌ لهم، وبركةٌ عليهم

إيثار لفظ الإسراء دون غيره:

وجَّه الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ دون غيره من مثل: أن اخرُج؛ لأن لفظ الإسراء يوجز من المعاني ما لا يوجزه لفظ الخروج وغيره؛ ففي الإسراء معنى السير ليلًا، وفيه معنى التلطُّف في الخروج، وفيه الحفاظ على السِّرّية، وفي ذلك تدريب للأمة على منهج الأخذ بأسباب النجاة وأخذ الحيطة في مثله ما أمكن، وإلا فالله تعالى القادر على إهلاك فرعون في البحر كان قادرًا على إهلاكه في القصر دون إسراء ولا إغراق.

في قصة نجاة موسى عليه السلام وقومه تدريبٌ على الأخذ بالأسباب

نوع الباء ودلالتها في ﴿بِعِبَادِي﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ تفيد المصاحبة، وتوجِّه موسى عليه السلام إلى العناية بقومه، وتلمح له بضرورة الالتحام بهم، وعدم السّهو عنهم؛ فهم رصيدُ الإيمان مِن الخلق في حينه، وهم الذين تحدَّوْا فرعون وجنده، قائلين صراحة: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ

الإمام المسلم يَلتحم برعيته، ويهتمّ لشأنهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 31.
(3) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 80.

قَاضِۖ﴾، وهكذا تكون عناية المسؤول برعيّته؛ يكترث لشأنهم، ولا يستأثر بخير دونهم.

نكتةُ التعبير بصيغة ﴿بِعِبَادِى﴾:

عباد الله تعالى يحظون بالقُرب، ويـنـالـون الكرامات

في ذِكر اسم (عباد) في قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِى﴾ مزيد تكريم للموصوفين به؛ إذ إن وصف العبودية بصيغة ﴿بِعِبَادِى﴾ في القرآن الكريم يأتي في مقامات التقريب لهم والمِنّة عليهم والتشريف لهم؛ لأنهم (عباد) محبّون لربهم ﷻ، كما في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: 63]، بخلاف وصف العبودية بصيغة ﴿لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46] فإنه يجيء في مقامات قَسْرِهم على الإذعان، وغيره ممَّا هو من ذلك بسبيل، كما في قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46].

لطيفة الإضافة في ﴿بِعِبَادِى﴾:

عـبـاد الـلـه تـعـالى موضع تشريف وتكريم بإضافتهم إليه تعالى

الإضافة في قوله تعالى: ﴿بِعِبَادِى﴾ إضافة تكريم وتشريف، إلى ما فيها من "إظهار المرحمةِ، والاعتناءِ بأمرهم، والتنبيه على غاية قُبح صنيعِ فرعونَ بهم؛ حيث استعبدهم وهم عباده ﷻ، وفعل بهم من فنون الظلم ما فعل"[1]، كذلك فيها "إيماءٌ إلى تخليصهم من استعباد القِبط، وأنهم ليسوا عبيدًا لفرعون"[2]، بل عباد لله تعالى؛ فكانوا جديرين بـ "إضافتهم إلى نفسه ﷻ لإيمانهم"[3] الذي طهّرهم من أدران الكفر.

دلالة الفاء في الفعل ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾:

إذا أراد الله تعالى شيئا هيَّأ له الأسباب

الفاء في الفعل ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ "عاطفة"[4] للفعل ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ على الفعل ﴿أَسۡرِ﴾، وفي إيثارها دون سواها من أدوات العطف توجيه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 270.
(3) الكرماني، لباب التفاسير: ص1830.
(4) الدعاس، إعراب القرآن: 2/ 266.

موسى ﷺ نحو متابعة الأحداث المأمور بها دون توانٍ؛ وقد ظهر بعد ذلك أنّ أجل فرعون وجنده كان في علم الله تعالى قد آنَ، والله تعالى إذا أراد شيئًا هيَّأ له الأسباب، وكل شيء عنده ﷻ بمقدار.

معنى فعل الضرب:

قد يجري الله تعالى على أيدي الصالحين ما لا يخطر على بال

التّعبير بالضرب في قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ يحتمل معنى الضرب الحقيقي، أي: ضرب ماء البحر بالعصا؛ فينفلق، ويحتمل الضرب المجازي، أي: إنشاء طريق في البحر، أي: فاجعل، أو فاتخذْ لهم، أو بيِّن لهم طريقًا يسلكونه في البَحْرِ، قال أبو حيَّان: "والظاهر أن لفظة ﴿فَٱضۡرِبۡ﴾ هنا على حقيقتها من مسِّ العصا البحرَ بقوة وتحامُل على العصا، ويوضحه في آية أخرى ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: 63]؛ فالمعنى: (أن اضرب بعصاك البحر لينفلق لهم فيصير طريقًا)؛ فتعدَّى الضرْب إلى الطريق بِدُخول هذا المعنى، فلما كان الطريق متسبَّبًا عن الضرب جُعِل كأنه المضروب"[1].

نوع اللام ودلالتها:

لِأجل عباد الله يَخرِق الله ﷻ بعض النواميس

(اللام) في قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ﴾ تدُل على أن سبب أمر موسى ﷺ بضرب البحرَ هو أن ينفلقَ ليَمُرَّ بنو إسرائيل فيه دون عدوّهم؛ فينجوا ويهلك عدوّهم، فأفادت (اللام) قصرَ غاية ضرب البحر لنجاة بني إسرائيل وحدهم.

نكتة تقديم ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول:

في قصة نجاة موسى ﷺ وقومه على الأخذ بالأسباب

في تقديم النظم الكريم القيدَ بالجار والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المفعول في جملة ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقًا﴾ دلالةٌ على اختصاص هؤلاء العائد عليهم الضمير في ﴿لَهُمۡ﴾ بهذه الخصيصة، وأن تغيير ناموس البحر من السيولة إلى اليبوسة ما كان إلا لأجل هذه الفئة المظلومة، وذلك يبعث في نفوس من يُظلم الثقةَ في معية الله تعالى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 361.

له، وقُدرته على نُصْرته إياه، حتى وإن اقتضى الأمرُ تغييرَ بعض قوانين الكون من أجله.

نكتةُ تنكير ﴿طَرِيقًا﴾:

طـريـق نـجـاة مـوسى وقـومـه عجيب لم يُعْهَد

جاء التعبير بـ ﴿طَرِيقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ منكَّرًا لِغرابته وتَفرُّده في بابه وعدم اعتياد مثله؛ ذلك أنه كان ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾، لم يُعهَد له مثال، ولا خطر لأحد من الخلق على بال، و"المراد بالطريق هنا جنسُه؛ فإن الطرق التي حدثت بعد أن ضرب موسى بعصاه البحر كانت اثني عشر طريقًا بعدد أسباط بنى إسرائيل"[1].

براعة التقييد بالجار والمجرور ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾:

قدرة الله تعالى على تعطيل الأسباب مطلقةٌ

من بَراعات النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ﴾ أنْ قَيَّد ضَرْب الطريق بكونه ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ إذ البحر أبعدُ ما يُتَوقَّعُ أنْ يُجعَل فيه طريقٌ، والأعجب أن يكون هذا الطريق ﴿يَبَسًا﴾ لا بَلَل فيه ولا رطوبة، وهذا يُجَلّي جانبًا من جوانب قدرة الله تعالى المطلقة التي لا تَحُدُّها حدود على تعطيل الأسباب، وخرق نواميس كونه لمن يشاء من عباده.

لطيفة تعريف ﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

شقّ طريق يَبَسٍ في البحر آية صدقِ لموسى عليه السلام

تعريف ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ - وإن كان لبيان العهد؛ إذ هو في رأيٍ بحر القلزم[2] البحر الأحمر الفاصل بين مصر ومدين - فإنه تعريفٌ يُضفي على البحر خطورة، ويُبين عن كمال صفة البَحْريّة فيه؛ مما يُجَلّي عظمة الإعجاز في إنشاء هذا الطريقِ اليابس في أعماقه؛ الطريقِ الذي حصل شَقُّه ويُبْسُه في لحظته، على إثْر ضرْب نبي الله عليه السلام البحرَ بتلك العصا التي باركها الله تعالى.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 132.
(2) حقي، إسماعيل، روح البيان: 6/ 276.

بلاغة المجاز في إيقاع الضرب على الطريق:

من كمال قدرة الله تعالى فلق البحر العظيم بالعصا الصغيرة

في إيقاع الضرْب على الطريق في قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الضرْب إنما أوقِع على البحر لا الطريق، والعلاقة بين البحر والطريق هي المكانية؛ إذ الطريق ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، وكذلك في إيقاع الضرْب على الطريق مجاز لغويٌّ مُرسَل؛ إذ الطريق مسبَّبٌ عن الضرْب، وضرْب البحر سببٌ في إنشائه، والعلاقة حينئذ المسبَّبيَّة، و"الأصل: اضرب البحر ليصير لهم طريقًا يبسًا"[1]، ويمكن النظر إليه على أنه مجاز مرسل لعلاقة ما سيكون؛ لأن الطريق وُصِف باليبس، الذي سيؤول إليه.

وكل ذلك على رأي مَن حمل الضرْب على ظاهر معناه اللغوي؛ وهو الأنسب للمقام؛ لأن هذا وذاك مِن فيض إيقاع الضرب الحقيقي على المفعول ﴿طَرِيقٗا﴾؛ مما يبين عظمة الله تعالى وكمال قدرته على تحويل البحر إلى طريق يابس، بمجرد ضرْبِ ذلك البحر الهائل بعصًا صغيرة يمكن أن تحملها يدُ نبيّ الله تعالى.

موقع ﴿يَبَسٗا﴾:

وصف الطريق المنشأ في البحر حديثًا باليبس يؤكّد المعجزة

لفظ ﴿يَبَسٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ "مصدرٌ، جُعِل وصفًا لـ ﴿طَرِيقٗا﴾ مبالغةً، ووجه المبالغة فيه أنه يدفعُ تَوَهُّمَ بقاءِ بقية طينٍ أو بَلَلٍ في الطريق بعد انشقاق ماء البحر عنه، فـ"ما كان فيه وحْلٌ ولا نَداوة، فضلًا عن الماء"[2]، فقرَّر ذكرُ الوصف ﴿يَبَسٗا﴾ أن الطريق صار فور ضرب البحر ممهَّدًا لعبور موسى عليه السلام ومن معه بلا أيّة عوائق، أو محاذير.

سر إيثار مفردة ﴿يَبَسٗا﴾ دون سواها:

هول منظر الانشقاق يتطلّب التَّطمين

"اليَبَس – بفتح المثناة والموحدة، ويقال: بسكون الموحدة – وصفٌ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 546.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 22/ 80.

بمعنى اليابس"[1]، وفي إيثار النظم الكريم التعبيرَ به وصفًا للطريق تمامُ الاتِّساق مع غرضِ تطمين موسى عليه السلام وأهل رفقته؛ لأن تيبُّس الطريق وثباته يمكّن من العدْوِ عليه بلا كبير جهد، بخلاف الطريق المبلّل أو الذي فيه طبقة طين ووحْل، فصار طريق البحر خيرًا لهم وأيسر عليهم من طريق البَرّ بما فيه من صخور ورمال.

بلاغة الطباق بين ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ و﴿يَبَسٗا﴾:

من براعة النظم القرآني في قوله تعالى: ﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ الجمع بين النقيضين: (البحر) و(اليبس)، وضمُّهما متلاصقين: ﴿ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾؛ وتلك المفارقة العجيبة تكشف عن كمال العظمة الإلهية في تحويل الضدّ إلى ضدّه في لحظة من الزمن.

من كمال العظمة الإلهية تحويل الضدّ إلى ضدّه فورًا

بلاغة التعبير بنفي الخوف في جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾:

جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ "حالٌ من المأمور - وهو موسى عليه السلام -، أي: آمِنًا مِن أن يُدرِكَكم العدوُّ، أو صفةٌ أخرى لِـ ﴿طَرِيقٗا﴾"[2]؛ أي: طريقًا لا يُخاف فيه الدَّرَك أو الضرر، و﴿لَّا﴾ للنفي على القراءة التي تثبت الألف، "أي: لا تخاف لحوق فرعون وجنوده، ولا تخشى غرق البحر، ليس على النهي، ولكن على رفع الخوف عنه والأمن عن أن يدركهم ويلحقهم؛ ألا ترى أنه قال: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشعراء: 61 - 62]"[3].

قضى الله تعالى أنه لا يخاف لديه المرسلون

وبشارةُ الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام بِنفي الخوف عنه تارة، وبنهيه عنه أخرى تكرَّرتْ في القرآن الكريم في مقامات شتى وقعت لموسى عليه السلام، منها مقام نداء الله تعالى إياه أوَّلَ مرةٍ حين آنَسَ نارًا فذهب يلتمسها لأهله، وأمره الله تعالى بِرمي العصا فاستحالت حيّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 270.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 31.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 296.

تسعى؛ فخاف ﷺ فبشَّره الله تعالى بأنه لا يخاف لديه المرسلون، ونهاه عن الخوف.

كما طمأنه الله تعالى وأمّنه من الخوف حين ألقى السّحرة حبالهم وعصيَّهم وخُيِّل إليه من سحرهم أنها تسعى، فأوجس في نفسه خيفةً، وطمأنه هنا حين رأى البحر من أمامه والعدوَّ من خلفه.

دلالة المضارعة في جملة: ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾:

نـفـيُ المـضـارع يسلبه التجدُّد، ويحيله المعنى إلى الثبوت

صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ تدلّ على تأكُّد روح الطمأنينة والأمان في نفس موسى ﷺ في هذا الموقف العصيب، وهذا معهود له ﷺ منذ أن أخبره الله تعالى بذلك في أوَّل البعثة حين قال الله تعالى له: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: 10].

ودخولُ النفيِ على الفعل المضارع يسلُبه دلالة التجدُّد والحدوث، ويُحيلهما إلى عكسهما من دلالة الدوام والثبوت، كما يسلبه نفس معناه، ويقرّر عكسه لفاعله؛ فالخوف هنا يُسلَب بالنفي ليحلّ محله عكسُه مِن الأمن والطمأنينة، كما يُسلب بالنفي تجدُّد الخوف؛ ليحل محله دوامُهما.

دلالة النفي أو النهي في: ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾:

تـطـمـين نـبـي الله بين الإخبار والـنـهـي عـن الخوف

قرأ حَمزَة بسكون الفاء ﴿لَّا تَخَفْ﴾ جزمًا وقَرَأَ الباقونَ ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ رفعًا بِأَلف[1].

ووجْهُ قراءة حمزة أن ﴿لَّا﴾ جازمة للنّهي وسَقَطت الألف لسكونها وسُكون الفاء، ويفيد أسلوب النهي استثارة قلب موسى ﷺ لقطع دوافع الخوف، وصدّها عن أن تداخل قلب نبيٍّ يقول: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: 62]، وتكون جملة ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ بعدها من

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 421.

باب الاستئناف[1] لبيان حال موسى ﷺ من طمأنينته بإنفاذ وعد الله تعالى له.

ويجوز أن تكون ﴿لَّا تَخَفْ﴾ مجزومة جوابًا للطلب ﴿فَٱضْرِبْ﴾، "فَهو على المجازاة الَّتي هيَ جَواب الأَمر كَأَنَّهُ قالَ: (اضْرِب فإنَّك إن تضرب لا تخف) كَقَوْلِه ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [الشعراء: 62]"[2].

وقَرَأَ الباقونَ ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ بِالرَّفْع على الإخبار، فتكون لا نافية، ويكون المعنى أحد ثلاثة وجوه:

الأول: على الحالية وصاحب الحال موسى ﷺ، أي؛ "لَسْتَ تَخاف دَرَكًا؛ لأن فرعون يغرق قبل خروجه من البحر"[3].

الثاني: أنه "صفة للطريق، والعائد محذوف، أي: ولا يخاف فيه"[4].

الثالث: أنه ابتداء "على القطع مِمَّا قبله فيكون تَقْديره: (واضْرِبْ لَهُم طَريقًا)، ثمَّ أخبر فقالَ: (أَنْت غير خائِفٍ ولا خاشٍ)؛ أَي لست تخاف"[5].

لطيفة اختصاص موسى دون قومه بِبُشْرى عدم الخوف والخشية:

في ثباتِ القائد ثباتُ أتباعه، وفي اهتــزازه اهتزازُهم

كان الأمرُ في الجملة السابقة ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ خاصًّا بِموسى ﷺ فقط؛ وعلى سبيل الحقيقة؛ لأنه هو الذي سيضرب، وتلك معجزتُه هو دونهم، ومن دواعي نَفْي الخوف عن موسى ﷺ وحدَه هنا في منطوق الآية الكريمة - أيضًا - اتِّساق مع الأمر السابق ﴿فَٱضْرِبْ﴾؛ مِن حيث إنَّ جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ حالٌ مِن ضميره ﷺ في الفعل ﴿فَٱضْرِبْ﴾، أيْ: اضرب ثابتًا غير خائف.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 459.
(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 155.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 898.
(5) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 460.

وكذلك نفْيُ جُملتَي ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ "اقتصر على وعْدِه دون بقيَّة قومه؛ لأنه قدوتهم؛ فإذا لم يَخَفْ هو تشجَّعوا، وقوي يقينُهم، فهو خبرٌ مرادٌ به البُشْرى"[1].

وكذلك في اختصاص موسى ﷺ بالبشارة لفظًا دون أهل رفقته من بني إسرائيل - إشارةٌ إلى أفضليته عليهم؛ فهو سبب نجاتهم، وهو سبب كل خير عليهم من الله تعالى.

دلالة حَذْف متعلِّق ﴿تَخَٰفُ﴾:

أمـــان مـوسى وقـــومـــه مـن فـرعـون في ذلك اليوم وبعده

حُذِف متعلِّق الفعل ﴿تَخَٰفُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ وهو ظرفُ المكان (فيه)، أي: في ذلك الطريق اليبَس، والمعنى: "(لا تَخافُ فيه دَرَكًا)، وحُذِف (فيه) كما تقول: زيدٌ أَكْرَمتُ، تريد: أَكْرَمتُهُ، وكما قال ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48] أيْ: (لا تجزي فيه)"[2]، وحذف الظرف ههنا يُفيد الإطلاق، ويبشِّر موسى ﷺ وقومه بعموم الأمن والأمان في جميع أحوالهم بعد هلاك فرعون وملئه.

دلالة التعبير بالدَّرَك مادّةً وصيغةً:

في نَـفْـيِ الـدّرك أمانٌ مِن الإغراق وطـمـأنـةٌ من اللحاق

من معاني كلمة الدَّرَك اسمُ مصدر من الإدراك، والمعنى: (لا تخاف إدراك العدو)، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾، أي: (لا يصل إليك فرعون وجنوده ولا يَلحقونك)[3].

وفي نَفْيِ الدرك تأمينٌ مِن الغرق؛ إذ كان النزول إلى الأسفل دركاتٍ، كما أن الصعود إلى الأعلى في المقابل درجاتٌ؛ وفي القاموس: "النارُ دَرَكاتٌ، والجنةُ دَرَجاتٌ، والقعرُ الآخِرُ، أي: الأسفل في جهنم: دَرْكٌ"[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 270.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 444.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 376.
(4) الجوهري، الصحاح: (درك).

مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]، وفي لفظ الدَرَك تطمينٌ لهم من الجهتين دَفْعةً: من جهة الوراء - أي: من إدراك فرعون إياهم -، ومن جهة الأمام؛ أي: من غرقهم في قاع البحر، فلما كان الدَّرَك - مادّةً وصيغةً - يجمعهما؛ أغنى عن ذكرهما جميعًا، فلم يقل سبحانه: لا تخاف من فرعون إدراكًا أو لحاقًا، ولم يقل في المقابل: (ولا تخاف غرقًا).

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾:

ضاعف الله تعالى لموسى عناصر الطمأنينة

الواو في جملة ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ عاطفةٌ على جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾؛ وفي العطف دَعْمٌ لِعامل الطُّمأنينة في نفسه ﷺ، ونفوس أهل رفقته المؤمنين من السحرة الذين آمنوا خصوصًا، وبني إسرائيل عمومًا، وقد "تكون (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ للاستئناف، لا للعطف"[1]، هذا على قراءة حمزة بجزم (تخف).

معنى ﴿وَلَا﴾:

جمع الله لكليمه موسى الأمان كله

﴿وَلَا﴾ في قوله تعالى لموسى ﷺ: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ نافية، وجملتها معطوفة على قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾، فجمع لموسى ﷺ الأمان من دَرَكَ العدو ومن الغرق.

ويحتمل أن تكون ناهية على قراءة حمزة بالجزم في (لا تخف) وثبتت الألف فيها للفاصلة، وهي - وإن كان ظاهرها للنهي - غير أنها إلى إفادة الإيناس والتطمين أقرب؛ لأن النهي صادر ممّن يقدر على حِفظ عبده من الخوف وعواقبه.

لطيفة إيثار التعبير بالخشية:

من إيناس الخائف تعديد أسباب الأمان له

إذا كانت "الخشية شدّة الخوف"[2] ففي نفي الخوف عمومًا عن موسى ﷺ وقومه ثم نفي الخشية خصوصًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ انتزاعٌ لِكلِّ أسباب الخوف الذي قد يلحقه من جُرْم فرعون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.

وجنده، ولكل أسباب الخشيةِ التي قد تُثار في نفسه مِن عواقِب اقتحامه وقومه البحر.

وهكذا ساق الله تعالى له سبب أمنٍ بعد آخر؛ فهو ﷺ بشرٌ؛ قد يعتريه الخوف؛ والخشية؛ وبنفيهما من لدنه سبحانه يتطامنُ القلب.

دلالة المضارعة في قوله: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾:

عظيم الفضل بدوام الأمن

تدلُّ المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ على الوعد بدوام أمنه ﷺ وأمانه؛ إذ إنّ النفي الداخل عليها يسلبها دلالتها الصرفية من التجدُّد والحدوث، كما يسلبها دلالتها اللغوية من الخشية والفَرَق؛ ليبقى ﷺ آمنًا مطمئنًّا إلى سلامته وسلامة قومه من فرعون وجنوده، ومن الغرق والدرَك.

براعة تقديم السّبب على المُسبّب:

إسعافُ الفَزِعِ بوسيلة الخلاص أهمُّ مِن تقديمِ وعْدِه بالنَّجاة

في تقديم قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ مسارعة إلى تطمين موسى ﷺ بِذكر سَبب النجاة والتوجيه إلى باب الفرَج، قبل ذِكر النتيجة والمسبَّب، وهو ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾، وفي ذلك يكمُن منهج إسعاف الملهوف الفَزِع.

سرّ حذف مفعول ﴿تَخۡشَىٰ﴾:

التدرُّجُ من الخصوص في نفْي الأدنى إلى العموم في نفي الأخطر

حَذْف مفعول ﴿تَخۡشَىٰ﴾ بعد ذكر مفعول ﴿تَخَٰفُ﴾ يفيد "العموم، أي: لا تخشى شيئًا، وهو عامٌّ مرادٌ به الخُصوص، أي: لا تخشى شيئًا مما يُخشى مِن العدوّ، ولا مِن الغرق"[1]، فـ"لا تخاف أن يدركك فرعون، ولا تخشى أن تغرق"[2].

نكتة تقديم نفي الخوف على نفي الخشية:

قُدِّمتْ جملة ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ على جملة ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾؛ تعجيلًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/ 247.

الخوف من المحقَّق، والخشية من الآتي

بتطمينه ﷺ وقومِه؛ لغلبة ظنهم أنهم مُدْرَكون من عدوِّهم، فـ"الخوف هو مما يَجيئه مِن ورائه، والخشية مما يلقاه من أمامه"[1]، وما يجيؤه مِن ورائه هو الخطر المُحقَّق، وما يلقاه من أمامه هو الخطر المتوقَّع، والخطر المحقَّق أحوجُ إلى التَّطمين من الخطر المتوقَّع؛ لذلك قُدِّم.

سر تكرار (لا) في جملتي ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾:

في تكرار نفي الخطر مزيد تطمين للخائف

فائدة تكرار (لا) في مثل هذه الجمل الانتفاء على كل حال؛ إذ لو أسقطت: (لا)؛ لاحتمل الانتفاء بقيد الاجتماع، تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو، بل أحدهما[2]، فالمعنى يختلف في ذكر (لا) عنه في إسقاطها، فإذا أسقطتَها احتمل المعنى نفيَ قيامهما على كل حال مجتمعَيْن أو متفرّقَيْن، واحتمل المعنى أيضا أنهما لم يقوما مجتمعين، بل قام كلٌّ منهما على انفراد، فإذا جئت بـ (لا) صار الكلام نصًّا على المعنى الأول[3]، فنفَى ﷺ الخوف وشدّته الممثّل بلفظ (الخشية) عنه ﷺ مجتمعين ومنفردين أيضًا، وفي ذلك مزيدُ تطمينٍ لموسى ﷺ، اقتضته خطورة اللحظة التي يعانيها.

نوع (الفاء) ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ﴾ فصيحة، عاطفة على مقدّر يدل عليه الكلام السابق، أي: فسَرَى بِهم موسى ﷺ، فأتْبعهم فرعون[4]، وهذه (الفاء) تدل على التعقيب ومسارعة فرعون وجنده للحاق بموسى ومن معه رغبة في المكر بهم.

دلالة استعمال (الإتْباع) دون (الاتِّباع):

الإتْباع اللحوق والإلحاق، والاتِّباع الاقتداء

معنى ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ يعني: تتبّع أثرهم مع جنوده

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 8/ 811.
(2) ابو حيّان، البحر المحيط: 2/ 288.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 208.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 271.

حتى لحِقهم، "يقال: أتْبعتُهم، أي: تبِعتُهم، وذلك إذا كانوا سبقوك فلحِقتهم، ويؤيده أنه قُرِئ (فاتّبعهم) من الافتعال، وقيل المعنى: (أتْبعهم فرعونُ نفسَه)؛ فحُذِف المفعولُ الثاني"[1]، و(الاتِّباع) يغلُب عليه من معانيه الاقتداء بالغير في خلق أو دين أو غيرها من الأمور المعنوية، وفي الإتْباع - تخفيفًا - إيماءٌ بسرعة اللحاق، والتّعجّل في اقتحام البحر سعيًا الى إدراك موسى عليه السلام وقومه، ودخول الفاء على الفعل يتَّسِق مع هذا التوجيه في الدلالة على السّرعة.

دلالة الفعل الماضي ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾:

تُلْمِح صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ - بما تتضمنه من دلالة على تحقّق الوقوع - الى تصميم فرعون على الفتك بهم، وعدم التراجع عن قراره، على الرغم ممَّا لاح له من معجزة انفلاق البحر، بل إن فرعون قد خدع نفسه، وزعم أن البحر إنما انشقّ لطاعته - كما في بعض الأخبار - ؛ فاقتحم بلا تَرَوٍّ.

من صفات المجرمين الإصرارُ على الجُرم

نكتة ذكر الوصف ﴿فِرْعَوْنُ﴾ دون اسمه الصّريح:

لم يذكر القرآن الكريم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ باسمه العلم قطُّ، بل ذكره دائمًا بِلقبه هذا؛ وذلك لأنّ الغرض يختصُّ بظلم فرعون وكفره لا باسمه، ومعلوم أن كل مَن حكم مصر قديما كان يلقّب بالفرعون، و"كلّ عاتٍ متمرِّد فرعونٌ، والعُتاة: الفراعنة، وقد تفرعن، وهو ذو فرْعَنَةٍ، أي: دهاءٍ ونُكْرٍ"[2]، و"الفَرْعَنَةُ: الكِبْرُ والتَّجَبُّر، وفِرْعَوْنُ كُلِّ نَبيٍّ مَلِكُ دَهْرِه"[3].

كلُّ ظالمٍ عاتٍ مستبدٍّ متكبّرٍ فرعونُ

وكل هذه الصفات الذميمة اجتمعت في رجلٍ بلغت به الجُرْأة أن يقول للناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: 24]، و﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم

(1) الكرماني، لباب التفاسير: ص1435.
(2) الجوهري، الصحاح: (فرعن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فرعن).

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]؛ ففي إيثار ذِكر لقب ﴿فِرْعَوْنُ﴾ دون اسمه إلماحٌ إلى ما اجتمع فيه من مفاسد الفرعنة من البَغْي والظُّلْم - للناس ولنفسه -، فما أقبحه مِن لقب ذميم! وما أعظم النظم الكريم من قوْل بليغ.

نوع (الباء) ودلالتها في ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾:

الظالم أجبن من مواجهة المظلوم وحده، وإنما يحتمي بذيوله

معنى (الباء) في قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ المعيّة والمصاحبة، أي: أتبعهم فرعون مع جنوده وبصحبتهم، وكذلك تفيد الإلصاق، أي: أتبعهم ملتحمًا محميًّا بجنوده؛ ففي تلك الباء يتجلّى كيد فرعون بالمؤمنين، وحشده كل جنده وقوته للمكر بهم، أو أنْ يكون المعنى: "(ألحقهم جنودَه، وكان معهم)؛ فتكون (الباء) زائدة، وقيل: (الباء) للحال"[1]، "كما تقول: خرج زيدٌ بسلاحه، أو (الباء) للتعدّي لمفعولٍ ثانٍ بحرف جرّ؛ إذ لا يتعدَّى (أتبع) بنفسه إلا إلى حرفٍ واحدٍ"[2]، وهكذا تُثْري (الباء) التركيبَ بفيضٍ من الدلالات الكاشفة عن ملابسات الحدث، ولو سقطت لضاع ذلك العطاء الغزير.

نكتة تعريف الجنود بالإضافة لا بـ (أل):

المستبدّ الضَّال يتّخذ من الأعوان جنودًا على شاكلته

تدلّ الإضافة على التخصيص، ومعناها في قوله تعالى: ﴿بِجُنُودِهِۦ﴾ اتخاذُ فرعونَ جنودًا على شاكلته ظلمًا واستبدادًا، وإخلاصًا لعقيدته الفاسدة، وأنهم كانوا من أهل صفوته، الذين تحقَّق فيهم الولاء الكامل له، ويقرّر ذلك ما صرّح به القرآن الكريم من استكبارهم معه؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص: 39]؛ فخطَّأهم معه في حكم عامّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾

(1) الكرماني، لباب التفاسير: ص1435.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 362.

[القصص: 8]؛ مما استوجب إغراقهم معه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: 40].

دلالة (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾:

الله تعالى يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يُفلِته

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾ تدلُّ على فوريّة الأَخْذ، وسرعة الإهلاك، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: 40]؛ إذ حانت اللحظة المحتومة بعد إرخاء العنان لفرعون، واستدراجه إلى الهاوية، وهو غافل عن التوبة والإنابة.

إيثار لفظ (الغَشْي):

إذا حلّ هلاك الله تعالى بالظالم طوَّقه تطويقًا لا يقع تحت التصوُّر

التعبير بـ (الغَشْي) في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾ يدلُّ على أن أسباب الهلاك قد لفَّتْهُم من كل جانب، وأنه قد عَلاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الأمر الهائلِ، الذي لا يُقادرُ قدرُهُ، ولا يُبلَغ كُنْهُه، ويكمنُ مدارُ التهويلِ والتفخيمِ في خروجِه عن حدود الفهم والوصفِ، لا على سماعِ تفصيل القصة[1]؛ وفي ذلك من التخويف لكل فرعون ظالم ما لو تدبّره لتاب وأناب وتحسّب.

براعة حذف متعلّق ﴿غَشِيَهُمْ﴾:

إظهارٌ للهلع من هول عموم الحالة لا خصوص الغرق

حُذِف متعلّقُ ﴿غَشِيَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ إذ إنّ التقدير: (ما غشيهم من مستفظَع التعذيب والإهانة ما نالهم)، ففي هذا الحذف إشارة إلى هَوْل اللحظة، وعموم أسباب الخطر لا خصوص الغرق، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: 22]، وفي الحديث الشريف: "لَمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: 90]، فقالَ جِبْرِيلُ: يا مُحَمَّدُ، فلَوْ رَأَيْتَنِي وأَنا آخُذُ مِنْ حالِ البَحْرِ فأَدُسُّهُ في فيه؛ مَخافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ"[2]، وكأن المخلوقات كلها بدءًا من الملائكة الكرام

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 32.

(2) الترمذي، سنن الترمذي، الحديث رقم: (3107).

تتضافر على إهلاكه، وهذا "من جوامع الكلم التي تستقلّ مع قِلّتها بالمعاني الكثيرة"[1]، ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: 53 - 54].

إشارة التّعبير بالماضي ﴿فَغَشِيَهُم﴾:

التّعبير بالماضي ﴿فَغَشِيَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ يقطع بِغَمرِهم بأسباب الهلاك، وشمولهم بأسباب الضياع جملةً، مع ما تحمله صيغة الماضي من دلالة على تحقّق الوقوع وحتميّته.

من غباء الظالم التهوُّر في اتخاذ القرارات المُبيرة له

مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم﴾:

قال أبو حيَّان: "الظاهر أن الضمير في ﴿فَغَشِيَهُم﴾ في الموضعين عائد على فرعون وقومه، وقيل: الأول على فرعون وقومه، والثاني على موسى عليه السلام وقومه، وفي الكلام حذفٌ على هذا القول تقديره: (فنجا موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه)"[2]، وهذا من عجَب النظم الكريم؛ إذ يعطي الفعل المعنى وعكسه باعتبار متعلّقين ضدَّيْن.

من الأفعال ما يعطي المعنى وعكسه؛ باعتبار متعلّقين ضِدَّيْن

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾ بيانية للإبهام الذي في الموصول ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾، فالمبهم الذي غشيهم كان من اليم الذي تسبب في إغراقهم وإهلاكهم.

أيسر جند الله تعالى كفيل بإهلاك أعتى العتاة

سر اختلاف التّعبير بين لفظ ﴿ٱلْيَمِّ﴾ و﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

ذكر في معنى اليم أنّه: لجّة البحر، وقعره الذي لا يُدرك، ووصفُ (اليمّ) بالعمق، والتردّد في الأمواج، والتلاطم، والتموّج يناسب تمامًا العقوبة بالإغراق لجمعٍ كبيرٍ من الناس مدجّجين بأسلحتهم للمكر بالمؤمنين، ولذلك نجد اقتران لفظ (اليمّ) في القرآن بمشاهد الانتقام والعقاب إغراقًا، في حين آثرَ لفظ (البحر) مع

المؤمن موضع تشريف وعلو مكانة، والكافر في ضعة وسوء مآل

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 376.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 363.

موسى عليه السلام وقومه وعدلَ عن استعمال لفظة (اليمّ)؛ إذ فيه - فضلًا عن عموم معناه - مراعاة لهم، وحَيْدة من نسبة العقوبة إليهم، وإعلاء لشأنهم إثرَ ما عانوه من أذى فرعون وقسوته معهم، ولكون لفظ (البحر) ممَّا يعبَّر به عن مواطن النِّعَم، والخيرات.

نوع ﴿مَا﴾ وأثرها في تهويل المشهد:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ موصولةٌ؛ وفي اصطفاء ﴿مَا﴾ الموصولة إرادة التفخيم والتعظيم أو التهويل؛ لأنّ الإبْهام الذي يوحي به اسم الموصول مع صلته يومئ إلى ذلك، إذ هو أَهَولُ مِنَ النَّصِّ على قَدْرِ (ما)[1]، والمعنى: (فغَشيَ فرعَوْنَ وجُنودَه من اليمّ ما غَشيَهُم منْ أمرٍ مَهولٍ جدًّا)، فدَلَّ الإبهام في الموصول وصلته عَلى عِظم الأمر المهول الذي غشيهُم[2].

في إبهام (ما) الموصولة إبهامُ العذاب وتهويله

دلالة تكرار جملة ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾:

تكرار قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ "يفيد ما أفاده قوله ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ﴾؛ إذ من المعلوم منه أنهم غشيهم غاشٍ؛ فتعين بالتكرار أنّ المقصود منه التهويل، أي: بلغ من هول ذلك الغرق أنه لا يُستطاع وصفه"[3]، وهو - كما سبق القول - "من باب الاختصار، ومن جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة، أي: غشيهم ما لا يعلم كُنْهَهُ إلا الله"[4].

ما يعانيه الظالم عند هلاكه مما لا يُحاط بِهَوْلِه

موقع جملة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾:

جملة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ ابتداء بخبر جديد للدلالة على عاقبة فرعون إجمالًا، أو على الاستئناف البياني جوابًا لسؤال مقدر: ما مآل فرعون؟ أو ما ملخص قصة فرعون.

شؤمُ القائد ينال أتباعه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 55.
(2) الليداني، البلاغة العربية: 1/ 432 - 433.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 272.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 78.

ومما يشهد للابتداء أنه ذكر في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ بأنه ما كان منه قبل حادثة الغرق، وقوله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ للمبالغة في التهكم إذ قد ادعى من قبل أنه يهدي للرشاد فقال ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: 29][1].

بلاغة التعبير بالإضلال:

إضلال الفرعون قومَه يؤثّر في حياتهم كلها

"الإضلال: الإيقاع في الضلال، وهو خطأ الطريق الموصِّل، ويستعمل بكثرة في معنى الجَهالة، وعَمَلِ ما فيه ضُرٌّ"[2]، فالتعبير بالإضلال في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ يحمل دلالتين، كل منهما حصل من فرعون في قومه: الدلالة الأولى: "حَملُه إياهم على الضلالة"[3]، الدلالة الثانية: أنه غيَّبهم في باطن البحر، ومن هذا الإضلال قوله تعالى حكاية لإنكار الكفار البعثَ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۢ﴾ [السجدة: 10]، فإضلال فرعون قومَه إضلالٌ عامٌّ شامل لجميع أنواع الإضلال.

بلاغة المجاز العقلي في ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾:

من تسبَّب في شرٍّ تحمَّل تبعاتِه

لمَّا كان فرعون سببا لإضلال قومه أُسنِد إليه إضلالهم؛ فقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ ذلك أنّه "سلك بهم مسلَكًا أدَّاهم إلى الخَيبة والخُسران في الدّين والدّنيا معًا؛ حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائلِ الدنيويّ المتصل بالعذاب الخالدِ الأخروي"[4]، وبذلك الفعل المشؤوم يَحمل فرعون أوزارًا مثلَ أوزار قومه الذين أضلّهم؛ لقول الرسول ﷺ: "من سنّ سنة حسنة فعُمِل بها من بعدِه كان له أجرها ومثلُ أجر مَن عمل بها من غير أن يُنْتقَص من أجورهم شيءٌ، ومن سَنَّ سنة سيئة عُمِل

(1) القنَّوجي، فتح البيان: 8/ 259.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 272.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 407.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 32.

بها مِن بعده كان عليه وِزْرُها ووزرُ مَنْ عمل بها ولا يَنْقُص ذلك من أوزارهم شيئًا"[1].

دلالة حذف متعلّق ﴿وَأَضَلَّ﴾:

حذفُ متعلّقات الأفعال القرآنية يُـثري دلالات السياقات

تتنوَّع تقديراتُ متعلِّقِ الفعل ﴿وَأَضَلَّ﴾ ما بين (أضلّ عن كذا)، و(أضلّ في كذا)؛ فإنّ فرعون أضلّهم في البحر؛ لأنهم غرقوا فيه، وأضلّهم عن الدين[2] الحقّ، وبذلك الحذف يفيض التركيب بالدلالات الكاشفة، التي تتآزر على بيان الإشارات المتنوعة المقصودة، مع وفْرة اللفظ ووجازة التركيب، وتركيز ذهن المتلقي على جريمة نسبة الإضلال لفرعون من جهة، وجريمة إيقاع إضلاله على قومه من الجهة الأخرى.

دلالة إيثار لفظ (القوم) دون (الملأ):

الملأُ رؤوسُ القوم، والقومُ سوادُ الأمة

آثر النظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ ذكرَ (القوم)؛ لأن "قوم الرَّجل: شيعته وعشيرته"[3]، وأقرباؤه الذين يجتمعون معه في جَدٍّ واحد، وكلّ من يقوم الرئيس بأمرهم، أو يقومون بأمره، وهؤلاء من أضلّهم فرعون وصرفهم عن طريق الهُدى.

أما "الملأ فهم الجماعة من الناس الرؤساء"[4]، و"أَشْراف النَّاس ووُجوههم؛ قالَ الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ [البَقَرَة: 246] و﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 60]"[5]، وهؤلاء كانوا أهل ضلال في أنفسهم؛ لأنهم كانوا منتفعين بذلك، مثل قارون وهامان وأضرابهما من المقربين لفرعون.

لطيفة الإضافة في قوله: ﴿قَوْمَهُۥ﴾:

قومُ القائد أَوْلى الناس بِنُصْحه ورعـايـتـه لا بإضلاله

إضافة (قوم) إلى ضمير ﴿فِرْعَوْنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَوْمَهُۥ﴾

(1) أخرجه أحمد في مسنده، عن جرير بن عبد الله البَجَليِّ، برقم، (19200).
(2) الكرماني، لباب التفاسير: ص1436.
(3) رضا أحمد، معجم متن اللغة: (قوم).
(4) البندنيجي، التقفية في اللغة: (ملأ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ملأ).

تزيد جرمَهُ جُرمًا؛ لأنهم قومُه الذين كان يجب عليه إخلاص النّصح لهم، والأخذ بأيديهم إلى بَرّ السّلامة، لا أنْ يُضلَّهم؛ فيوردَهم موارد الهلاك الدّنيوية والأخروية كما فعل فرعون بـ ﴿قَوْمَهُۥ﴾.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾:

ما هدى قومَه مَن أضلّهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ عاطفة على جملة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ﴾، وهذا العطف "إما مِن عطف الأعمّ على الأخصّ؛ لأن عدم الهدى يَصدُق بِترْك الإرشاد مِن دون إضلال، وإما أن يكون تأكيدًا لفظيًّا بالمرادف؛ مؤكِّدًا لِنفي الهُدى عن فرعون لِقومه؛ فيكون قوله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيدًا لـ ﴿وَأَضَلَّ﴾ بالمرادف، كقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [النحل: 21]"[1].

أو أنه عطف من باب التهكُّم بفرعون الذي قال لقومه ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾[2] [غافر: 29]، فما هداهم ولا نفعهم بل أضلَّهم وأهلكَهم.

دلالة نفي الهدى بـ﴿وَمَا﴾:

إضلال الفراعين أقوامَهم أمرٌ مؤكّد

﴿وَمَا﴾ في جملة ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ نافيةٌ هدايةَ فرعون ﴿قَوْمَهُۥ﴾ صراحة، مؤكِّدة إضلاله إيَّاهم في جملة ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾؛ وذلك إزراءٌ عليه، وتحذير من مثله، ونفي الهدى عن فرعون في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تقريرٌ وتأكيد لإثبات الإضلال المذكور قبل هذه الجملة له، والمعنى: "﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي: من أول أمره إلى هذه النهاية، المؤكدة بقوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾"[3].

بلاغة الطباق بين الفعلين ﴿وَأَضَلَّ﴾، و﴿هَدَىٰ﴾:

في المستبدّ تجتمع صنوف الشرّ

من بديع نظم القرآن الكريم جمعُه بين إثبات الإضلال لفرعون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 272.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 78.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 55.

ونفي الهداية عنه؛ ليجتمع فيه الشرّ والفساد بكل اعتبار، ولو اكتفى النظم الكريم بإثبات الإضلال له دون نفي الهداية عنه لَربما تَوهّم متوهِّم أن فرعون قد يتأتى منه هداية غير قومه مع إضلالهم هم، فلما نصّ عليهما معا حقَّقهما معا في نفس المتلقي، وتركه متيقِّنا من خلوّ فرعون من كل خير.

نكتة إطلاق الفعل ﴿هَدَىٰ﴾ بعد تقييد الفعل ﴿وَأَضَلَّ﴾:

الظالمون لا يُرْجى منهم خير

أَطلَق النظم الكريم الهداية المنفية عن فرعون لقومه في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، والتقدير: (وما هداه الله)، أو: (وأضل فرعون قومه وما هداهم)، أو: (وما هدى نفسه)[1]، غير أنّ إطلاق فعل ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ يوفِّر عناية السَّامع على التأكُّد من نفي الهداية عن فرعون نفيًا عامًّا جملةً وتفصيلًا، نفى هدايته عن قومه وعن غير قومه، وأنه شخص مشؤوم لم يكن فيه خير لأحد البتَّةَ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإسراء والسُّرى:

السُّرى سيرُ الليلِ عامَّته، يذكَّرُ ويُؤَنَّثُ[2]، ويقال: سَرَى وأسْرى لغتان قُرِئتا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: 81]، و﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ بقَطْع الهمزة ووَصْلها[3]، وزيادة القيد بالجار والمجرور ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: 81] مع الإسراء تدعم القول بأن الفرق بينهما أن السُّرى سير عامة الليل، وأن الإسراء سير بعض الليل، ويؤكّد ذلك تفسير الفعل ﴿أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: 1] في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] بأنّه كان في جزء من الليل، والله تعالى أعلم.

السُّرى سير الليل عامّته، والإسراء سير بعضه

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 296.
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سرى).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 2/ 196.

الدرك واللحاق:

الدَّرك من الإدراك، و"الإدراك: اللحاق والإصابة"[1]، أما اللحاق فإدراك فقط، ولا يشترط فيه الإصابة، فالآية الكريمة تطمئن موسى ﷺ أنه لن يُدرَك ولن يُصاب بأذى.

الـــدرك لـحاق وإصـــابـــة، والـلـــحـــاق لا تـــشـــترط فـيـه الإصابة

الغَشْي والتغطية:

"الغشاء قد يكون رقيقًا يبين ما تحته ويتوهم الرائي أنه لا شيء عليه لِرِقَّته، ومِن ثَمّ سميت أغشية البدن وهي أعصابٌ رقيقة قد غُشِّيَ بها كثير من أعضاء البدن، مثل الكبد والطحال، فالغطاء يقتضي سَتْرَ ما تحته والغشاء لا يقتضي ذلك، ومن ثَم قيل: غُشي على الإنسان؛ لأن ما يَعتريه مِن الغَشْيِ ليس بشيء بَيِّن، والغطاء لا يكون إلا كثيفًا ملاصقًا، وقيل: الغشاء يكون من جنس الشيء، والغطاء ما يقتضيه من جنسه كان أو من غير جنسه؛ ولذلك تقول: تغطَّيت بالثياب، ولا تقول: تغشَّيت بها، فإنِ استُعمِل الغشاء موضع الغطاء فعلى التوسع"[2].

الـغَـشْيُ يَـلُـفّ الـمـغـشيّ، والتغطية تستره

(1) الكرماني، لباب التفاسير ص314.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية: ص385.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»